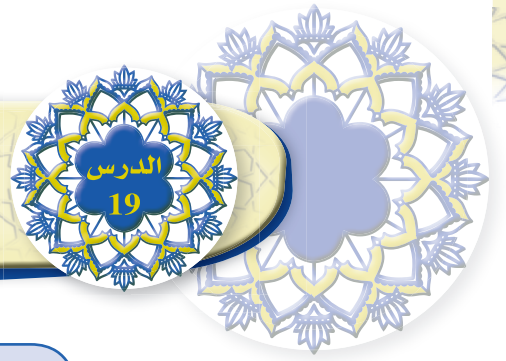


التصوف وبناء الإنسان الرباني



أهداف الدرس

1. أن أتعرف مفهوم الربانية وصفات الإنسان الرباني .
2. أن أتبيّن أثر التصوف في بناء الإنسان الرباني .
3. أن أتمثل ما يجعلني من العلماء الربانيين .

تمهيد

إن لله عبادا جمعوا بين العلم والعمل ، اتصفوا بجميل الصفات ، ومحاسن الأخلاق ، وبلغوا منزلة عالية عند رب العالمين ، اصطفاهم الله لتبليغ رسالته ، وجعلهم أئمة يهتدي الناس بأقوالهم وأفعالهم بما علموا ودرسوا من الكتاب ، فاستحقوا أن يكونوا «ربانيين» بما ورثوا من الكتاب .
فمن هو الرباني؟ وكيف يحقق التصوف بناء الإنسان الرباني؟

نص الانطلاق

قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله - مبينا ما يكون به تحصيل العلوم -: «اعلم أن العلم الإنساني يحصل من طريقين ، أحدهما: التعليم الإنساني ، والثاني: التعليم الرباني .
أما الطريق الأول: فطريق معهود ، ومسلك محسوس ، يقرّ به جميع العقلاء ، وأما التعليم الرباني فيكون على وجهين ، أحدهما: من خارج ، وهو: التحصيل بالتعلم ، والآخر: من داخل ، وهو: الاشتغال بالتفكير ، والتفكير من الباطن بمنزلة التعلم في الظاهر... ، والعلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة كالبذر في الأرض ، والجوهر في قعر البحر ، أو في قلب المعدن ، والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء من القوة إلى الفعل . والتعليم هو إخراجة من القوة إلى الفعل...»

الطريق الثاني: وهو التعليم الرباني على وجهين:

الأول: إلقاء الوحي، وهو: أن النفس إذا كملت ذاتها يزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل الفانية. وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها...، وتعتمد على إفادته وفيض نوره...

الوجه الثاني: هو الإلهام، والإلهام تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنسانية على قدر صفائها وقبولها وقوة استعدادها، والإلهام أثر الوحي؛ فإن الوحي هو تصريح الأمر الغيبي، والإلهام هو تعريضه، والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علما نبويا، والذي يحصل عن الإلهام يسمى علما لدنيا، والعلم اللدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري...، وعلم الوحي خاص بالرسل موقوف عليهم...، والعلم اللدني يكون لأهل النبوة والولاية كما كان للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى عنه، فقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 64] وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدني وما لم يبلغ الإنسان هذه المرتبة لا يكون حكيما؛ لأن الحكمة من مواهب الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 268]. وذلك لأن الواصلين إلى مرتبة العلم اللدني مستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعليم فيتعلمون قليلا ويعلمون كثيرا، ويتعبون يسيرا ويستريحون طويلا» [رسائل الغزالي، ص 233 بتصرف].

الفهم

الشرح:

- **الحكمة:** العلم بحقائق الأشياء وأوصافها وخواصها وأحكامها على ما هي عليه.
- **الإلهام:** ما يقع في القلب من عمل الخير.
- **استخلاص المضامين:** أستخرج من النص ما يتحقق به الإلهام للعبد، وصفات الواصلين إلى هذه المرتبة.

أولاً: حقيقة الربانية

1. من هو الإنسان الرباني؟

تعددت الأقوال في بيان معنى «الرباني» وهو تعدد دال على أهمية المصطلح وعظمته وشرفه، وحسبُ العبد أن ربه أمره أن يكون «ربانياً» فيعمل على امتثال أمره والاتصاف بوصفه، قال الإمام القشيري -رحمه الله-: «الرباني منسوب إلى الرب...، وهم: العلماء بالله، العلماء في الله، القائمون بفنائهم عن غير الله، المستهلكة حظوظهم، المستغرقون في حقائق وجوده عن إحساسهم بأحوال أنفسهم، ينطقون بالله، ويسمعون بالله، وينظرون بالله، فهم بالله محو عمّا سوى الله. ويقال: الرباني من ارتفع عنه ظلّ نفسه، وعاش في كنف ظلّه سبحانه...، ويقال: الرباني الذي لا تؤثر فيه تصاريف الأقدار على اختلافها. ويقال: الرباني الذي لا تغيّره محنة، ولا تضرّه نعمة، فهو على حالة واحدة في اختلاف الطوارق. ويقال: الرباني الذي لا يتأثر بورود وارد عليه، فمن استنطقته رقة قلب...، أو تفاوتت عنده أخطار حادث، فليس برباني. ويقال: إنّ الرباني هو الذي لا يبالي بشيء من الحوادث بقلبه وسرّه، ومن كان لا يقصر في شيء من الشرع بفعله» [تفسير القشيري، 254/1 بتصرف]. وعلى هذا فيمكن القول في معنى «ربانيين» أنهم «علماء حكماء متخلقون بأخلاق الحق نظرا وخلقاً، وهم فارغون عن الإخبار عن الخلق والنظر إليهم والاشتغال بهم» [الرسالة القشيرية، 387/2]. قال الشيخ ابن عجيبة - رحمه الله - في بيان معنى قوله تعالى ﴿وَلِكُلٍّ كُونُوا رَبَّانِينَ﴾ «أي: علماء بالله، فقهاء في دينه، حلما على الناس، تُربون الناس بالعلم والعمل والهمة والحال» [البحر المديد، 373/1].

2. صفات الإنسان الرباني

إن الربانية لا تكون بالادعاء، بل هي اكتساب واصطفاء، والمتحقق بها له علامات، منها:

- **العلم والعمل**: إذ هما أساس الاصطفاء والاختيار، والعلمُ تعلم وتعليم، وعمل وامتنال، بهما تنال المراتب، ويكون التفاوت في الدرجات، والعلم بلا عمل وبال على صاحبه، والعلم النافع والعمل الصالح من أعظم وسائل نيل القربة عند الله والاتصاف بصفاته، وما يزال العبد يتعلم ويتخلق حتى يصير «ربانياً» حقاً قولاً وفعلاً.

– **ابتغاء الله والدار الآخرة**، بأن لا يلوي العبد على شيء من فتن الحياة الفانية، وأن يكون مقصوده الأعظم الله والدار الآخرة، فتكون حياته لله وبالله، قال الإمام الغزالي «وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن، وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى العيان، فالأهم ما يبقى أبد الآباد، وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً، والبدن مركباً، والأعمال سعياً إلى المقصد، ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى؛ ففيه النعيم كله وإن كان لا يعرف في هذا العالم قدره إلا الأقلون» [إحياء علوم الدين، للغزالي، 53/1].

– **الزهد في الحياة الدنيا**، وهو زهد يحمل العبد على التقليل منها، ونبذ الافتتان بها، ولا يكون كذلك إلا إذا كان ممن «كانت الدنيا في أكفهم لا في قلوبهم، صبروا عنها حين فُقدت، وشكروا الله حين وُجدت، وإنما ابتلاهم الله سبحانه بالفاقة في أول أمرهم حتى تكملت أنوارهم وتطهرت أسرارهم فبذلها لهم؛ لأنهم لو أعطوها قبل ذلك لعلها كانت تأخذ منهم، فلما أعطوها بعد التمكين والرسوخ واليقين، تصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين، وامتنلوا فيها قول رب العالمين: ﴿وَأَنِيعُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُشْتَغَلِينَ﴾» [الحديد: 7] [تاج العروس وأنس النفوس، لابن عطاء الله، ص 168].

– **التوفيق للطاعة**، فالتوفيق نعمة وفضل، وأمانة خير واجتناء، وإذا وفق في الأولى ثم في الثانية، كان ذلك دليل صدق وصفاء سر، ومن كان هؤلاء حالهم «فإن الله تعالى سهل عليهم ما عسر على غيرهم، وأيدهم بقوة منه على ما تحملوه من القيام بخدمته، حتى صار الشاق على الناس غير شاق عليهم، والثقيل على غيرهم خفيفاً عليهم؛ فكيف يقدر على الاقتداء بهم ضعيف المنة عن حمل تلك الأعباء، أو مريض العزم في قطع مسافات النفس، أو خامد الطلب لتلك المراتب العلية، أو راض بالأوائل عن الغايات؟! فكل هؤلاء لا طاقة لهم باتباع أرباب الأحوال، وإن تطوقوا ذلك زماناً» [الموافقات، 321/1].

– **المداومة على الأعمال الصالحة**، بأن يكون ربانيا في قوله وعمله، مواظباً مواصلاً غير منقطع، يتقرب إلى ربه كما أمر، في قرب دائم من ربه، وصلاح من حاله، ولأهمية المداومة وأثرها قال عنها النبي ﷺ: «يا أيها الناس، خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل» [صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصى ونحوه]. وكره التعمق والتكلف والتشديد خوفاً من الانقطاع، قال الله تعالى: ﴿وَاَعْلَمُوا أَنِّي بِكُمْ رَسُولٌ لَّهِ لَوْ كُفِّي عَنْكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ أَلَمِّ مَرَلَعَيْنِمْ﴾ [الحجرات: 7] [الموافقات، 321/1 بتصرف].

– **الإقبال على الله والتوسط بين الخوف والرجاء**، قال الإمام الشاطبي «أرباب الأحوال عاملون في أحوالهم على إسقاط الحظوظ، بالغون غاية الجهد في أداء الحقوق؛ إما لسائق الخوف، أو لحادي الرجاء، أو لحامل المحبة؛ فحظوظهم العاجلة قد سقطت من أيديهم بأمر شاغل عن غير ما هم فيه؛ فليس لهم عن الأعمال فترة، ولا عن جد السير راحة، فمن كان بهذا الوصف؛ فكيف يقدر على الاقتداء به من هو طالب لحظوظه مشاخ في استقصاء مباحاته؟!» [المواقفات، 321/1].

– **ملازمة الخوف والرجاء واستحضار منزلة القرب من الله**، باستشعار عظمتة وبطشه ورحمته في كل وقت وحين، وقد تقرر أن «النفوس إذا استشعرت أنها متقربة مالت إلى جناب الله تعالى فتكون أقرب للمواهب الربانية، وأن من أساء استوحش، ومن أحسن استبشر» [الذخيرة، للقرافي، 299/1]. ولا يبلغ العبد منزلة القرب إلا إذا كان «الفقر زينته، والصبر حليته، والرضى مطيته، والتوكل شأنه، والله عز وجل وحده حسبه، يستعمل جوارحه في الطاعات، وقطع الشهوات، والزهد في الدنيا، والتورع عن جميع حظوظ النفس، وأن لا يكون له رغبة في الدنيا البتة، فإن كان ولا بد فلا تجاوز رغبته كفايته، ويكون صافي القلب من الدنس ولها بحب ربه، فاراً إلى الله تعالى بسرّه، يأوي إليه كل شيء، ويأنس به وهو لا يأوي إلى شيء؛ أي لا يركن إلى شيء ولا يأنس بشيء سوى معبوده، آخذاً بالأولى والأهم والأحوط في دينه، مؤثراً الله على كل شيء» [رسائل الغزالي، ص 103].

ثانياً: الربانية في حياة طالب العلم

ينبغي لطالب العلم تحصيل الربانية في عمله وعلمه، قال الإمام أبو حامد الغزالي -رحمه الله- مبيناً بعض آداب المتعلم: «أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي المآل القرب من الله سبحانه، والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه، وممارسة السفهاء ومباهاة الأقران، وإن كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة، ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم، أعني علم الفتاوى، وعلم النحو، واللغة، المتعلقين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما أوردناه في المقدمات والمتممات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية. ولا تفهم من غلونا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم؛ فالتكفلون بالعلوم كالتكفلين بالثغور والمرابطين بها، والغزاة المجاهدين في سبيل الله، فمنهم المقاتل، ومنهم الرّدء، ومنهم الذي يسقيهم الماء، ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدهم، ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله

تعالى ، دون حيازة الغنائم؛ فكَذَلِكَ العلماء قال اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الْغَيْرَ الْمُنْزِلَ مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَرَجَلِي﴾ [المجادلة: 11] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ رَجَعْتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (آل عمران: 163) [إحياء علوم الدين، 1/53]. فهنيئاً لك طالب العلم ما أنت فيه ومقيم عليه تُجَمِّلُ باطنك وظاهرَكَ وتصدِّقُ في سِرِّكَ وعلانيَتِكَ متصفاً بالفضائل ربانياً في الأقوال والأعمال بما علمت ودرست من الكتاب.

ثالثاً: التصوف والربانية

علم الصوفية وعملهم دائر حول الربانية، وهي مقصودهم ومبتغاهم، والتصوف باب عظيم لتحقيقها، وما أخلاق الصوفي وتزكياته إلا طمع في الوصول إلى ذلك المقام، قال الإمام الغزالي: «وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطعُ علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق» [المنقذ من الضلال، ص 173]. وشأن من اتصف بهذه الصفات أن يكون محبوباً مرضياً ومقبولاً عند ربه، بما تخلص منه من شهوات، وما فطم النفس عنه من مألوفات.

واكتساب صفة الربانية يكون بتوفيق الله وفضله والعمل الصالح، ولا سبيل لادعاء ذلك أو التحلي به دون تصفية الباطن وإصلاح الظاهر، قال الشيخ ابن عجيبة -رحمه الله-: «الرباني الذي نسب إلى الرب بالمعرفة والمحبة والتوحيد، فإذا وصل إلى الحق بهذه المراتب، واستقام في شهود جلاله وجماله، صار متصفاً بصفات الله -جل جلاله-، حاملاً أنوار ذاته، فإذا فنى عن نفسه وبقي بربه، صار ربانياً» [البحر المديد، 2/44].

وما الأنس والمحبة والرضا إلا معارج يعرج بها السالكون نحو الربانية علماً وعملاً، حيث تبلغهم مراتب الأعمال منزلة العلم الرباني الذي يكون هبة من الله يتميزون به على أهل الظاهر بما اجتهدوا فيه من أمور الباطن.

التقويم

1. أبين مفهوم «الربانية» و«الإنسان الرباني».
2. أذكر الوسائل التي تتحقق بها الربانية.
3. أبرز العلاقة بين التصوف والربانية.

الاستثمار

سُئِلَ الإمام الجنيد - رحمه الله - عن التصوف فقال: «اسم جامع لعشرة معان؛ التقلل من كل شيء من الدنيا عن التكاثر فيها، والثاني: اعتماد القلب على الله عز وجل من السكون إلى الأسباب، والثالث: الرغبة في الطاعات من التطوع في وجود العوافي، والرابع: الصبر عن فقد الدنيا عن الخروج إلى المسألة والشكوى، والخامس: التمييز في الأخذ عند وجود الشيء، والسادس: الشغل بالله عز وجل عن سائر الأشغال، والسابع: الذكر الخفي عن جميع الأذكار، والثامن: تحقيق الإخلاص في دخول الوسوسة، والتاسع: اليقين في دخول الشك، والعاشر: السكون إلى الله عز وجل من الاضطراب والوحشة، فإذا استجمع هذه الخصال استحق بها الاسم، وإلا فهو كاذب». [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 22/1].

أتأمل النص ، وأبين أثر الصفات الواردة فيه في بناء الإنسان الرباني .

الإعداد القبلي

أبحث عن مفهوم الوسطية والاعتدال .